الخطبة الثامنة: يا نفس قد أزف الرحيل

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضِل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾

[آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب : ٧٠ - ٧١]

أما بعد:

فإن أصدق الحديثِ كِتاب اللهِ، وأحسن الهدي هدي محمدٍ، وشر الأمورِ محدثَاتها، وكُل محدثَةٍ بِدعةٌ، وكُل بِدعةٍ ضلَالةٌ، وكُل ضلَالةٍ فِي النارِ.

أحبتي في الله :

"يا نفس قد أزف الرحيل "

إخوة الإيمان: إن الموت يقصم الظهور، ويخرج الناس من الدور، وينزلهم من القصور إلى القبور بلا استئذان، فالموت لا يستأذن أحداً.

عباد الله : ليس هناك تذكرة تنطق بلسان حالها أبلغ من هـذه التـذكرة ، وليس هناك موعظة أنفع من هذه الموعظة وكفى بالموت واعظاً .

فالإنسان يعيش بطبيعة حياته يحكي ويسرد، يحلم ويتمنى، يتكلم ويناقش أمور حياته،وفجأة هاجته سكرات الموت فسكت اللسان، وانتهت الأحلام، وتجمدت الأعضاء عن الحركة.

ما هو الموت:

الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولته بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار .

والموت عباد الله من أعظم المصائب؛ فقد سماه الله في كتابه مصيبة قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[المائدة :١٢٦] فالموت هو المصيبة العظمى والرزية الكبرى، فالموت لا ريب فيه ولا شك فيه؛ قال تعالى في سورة ق: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق:١٩] أي ذلك ما كنت منه تهرب أو تميل أو تفر .

وقال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[النساء :٧٨]

أي في أي مكان وجدتم فلابد وأن يدرككم الموت ويفاجئكم ، ولو تحصنتم بالحصون المنيعة.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧]

أي كل من على وجه الأرض من الإنس والحيوان هالك وسيموت، ويبقى وجه ربك قال ابن عباس : الوجه هو عبارة عن ذات الله جل وعلا الباقي الدائم مع إثبات صفة الوجه لله

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

[آل عمران:١٨٥]

أي مصير الخلائق إلى الفناء، وكل نفس ميتة لا محالة .

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي تعطون جزاء أعمالكم وافيا يوم القيامة.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي فمن نحي عن النار وأبعد عنها، وأدخل الجنة فقد فاز بالسعادة السرمدية والنعيم المخلد.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي ليست الدنيا إلا دار الفناء لا يستمتع بها إلا الأحمق المغرور.

قال ابن كثير: الآية فيها تصغير لشأن الدنيا، وتحقير لأمرها، وأنها فانية زائلة.

الموت حق على الإنس والجن:

فالموت عباد الله على الإنس والجن كما في الصحيح عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال ﷺ: " **أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يمـوت، والإنـس والجن يموتون**"[1]

فمن يجادل في الموت وسكرته؟!

ومن يخاصم في القبر وضمته؟!

ومن يقدر على تأخير موته؟!

وتأجيل ساعته؟!

﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩]

لا ينجو أحد من ضمة القبر:

فلقد ورد في مسند أحمد عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ: "**إن للقبر ضغطة، لو كان أحد ناجياً منها نجا سعد بن معاذ**"[2].

هذا سعد ابن معاذ الذي قال عنه النبي ﷺ : "**هذَا الذِي تحرك لَه الْعرش، وفُتِحت لَه أبواب السماءِ، وشهده سبعونَ أَلْفًا مِن الْملَائِكَةِ، لَقَد ضم ضمةً ثُـم فُرج عنه**" [3].

فلماذا التكبر أيها الإنسان

---

1 - البخاري (٦٨٣٥)

2 - أحمد (٢٣٥٢٢)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢١٨٠).

3 - النسائي (٢٠٢٨)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٩٨٧) .

وسوف تأكلك الديدان ؟!

ولماذا تطغى وفي التراب ستلقى ؟!

ولماذا التسويف والغفلة وأنت تعلم أن الموت يأتي بغتة ؟!!

كل نفس ذائقة الموت .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

أكثروا من ذكر الموت:

لقد حث النبي ﷺ على الإكثار من ذكر الموت فقال ﷺ :**"أكثروامن ذكر هاذم الذات ، قيل : وما هاذم اللذات يا رسول الله ، قال : الموت "** [1]

وقال ﷺ :"**أكيس الناس أكثرهم ذكراً للموتِ**" [2]

وكان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشتـه يبقى الإله ويفنى المال والولـد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنـه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجري الرياح له والإنس والجن فيما بينهما تـرد

أين الملوك التي كانت لعزتهـا من كل أوب إليها وافد يفـد

حوض هنالك مورود بلا كذب لا بد من ورده يوما كمـا وردوا

1- الترمذي (٢٢٢٩) والنسائي (١٨٠١) وأحمد (٧٥٨٤)، وصححه الشيخ الألبـاني فـي صـحيح الجامع (١٢١٠) .

2- ابن ماجه(٤٢٤٩)، وحسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٨٤) .

واعلم أخي الحبيب أن الموت لا يقرع باباً، ولا يهاب حجاباً، ولا يقبـل بديلاً، ولا يأخذ كفيلاً، ولا يرحم صغيراً، ولا يوقر كبيراً.

الموت لا ينجوا منه أحد حتى رسول الله محمد ﷺ:

فقد قال له ربه عز وجل : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠]

ولقد واسى الله رسوله ﷺ بأن الموت سنة في خلقه؛ فقال تعالى في سـورة الأنبياء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾[الأنبياء:٣٤]

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس يوم وفاة الحبيب، فقال له: اجلس يا عمر! فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر،

فقال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[آل عمران]

وقال: لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبـو بكـر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها [1].

فلقد لقي النبي ﷺ من الموت شدة، وكان آخر كلامه من الدنيا: "**الـصلاة الصلاة، وما ملكت إيمانكم**" [2]

1- البخاري (٤٠٩٧).

2- أحمد (٢٥٢٧٨)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٤٦١٦) .

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت : إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عنـد موته، دخل علي أخي عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيتـه ينظر إليه وعرفت أنه يحب السواك فقلت: آخذه لك ؟ فأشار برأسه (أن نعم) . فتناولته فاشتد عليه وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه (أن نعم). فلينته فأمره وبـين يديه ركوة أو علبة - يشك عمر - فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: **(لا إله الإ الله إن للموت سكرات) .** ثم نصب يده فجعل يقول: **(اللهم** في **الرفيق الأعلى) .** حتى قبض ومالت يده [1]

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه فقالت فاطمـة عليهـا السلام: واكرب أباه فقال لها: **"ليس على أبيك كرب بعد اليوم" . فلما مـات قالت"**

يا أبتاه أجاب ربا دعـ ـ ـاه

يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه

يا أبتاه إلى جبريل ننعـ ـ ـاه

1- البخاري(٤٠٩٤) ، (فاشتد عليه) أي : الوجع . (فأمره) أي: أمره على أسنانه فاستاك بـه، وفـي رواية (بأمره) . (ركوة): وعاء من جلد يحاب فيه . (يشك عمر) هو ابن سعيد الرواي يشك هل قالت: ركوة أوعلبة وكلاهما بمعنى واحد (سكرات) جمع سكرة وهي الشدة .

فلما دفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول اللهﷺ التراب [1]

فالكل سيموت، يموت كل صغيروكبير، يموت كل أمير ووزير، يموت كل عزيز وحقير، يموت كل غني وفقير، يموت كل نبي وولي، يموت كل زاهد وعابـد، يموت كل صحيح وسقيم،كل نفس تموت غير ذي العزة والجبروت .

أيـــن الوالـــدون ومـــا ولـــدوا ؟!
أيـــن الجبـــارون ومـــا قـــصـدوا ؟!
أيـن أربـاب المعاصـي علـى مـاذا وردوا ؟!!
أمـا جنـوا ثمـرات مـا جنـوا وقـصدوا ؟!
أمـا قـدموا علـى أعمـالهم فـي مـآلهم ووفـدوا ؟!
أمـــا بكـــوا فـــي ظلمـــات القبـــور؟!
بكـــــــــوا والله وانفـــــــــــردوا !
أمـا طلبـوا زاداً يكفـي فـي طـريقهم ففقـدوا ؟!
أمـا حـل المـوت فحـل عقـد مـا عقـــدوا ؟!
عـــاينوا والله كـــل مـــا قـــدّموا ووجـــدوا ؟!
فمـــنهم أقـــوام شـــقوا وأقـــوام سعـــدوا .

1- البخاري (٤١٠٣)، ومعنى (يتغشاه) يغطيه ما اشتد به من مرض فيأخذ بنفسه ويغمه . (واكـرب أباه) أندب ما يصيب أبي من هم وغم وثقل . (ننعاه) من نعى الميت إذا أذاع موته وأخبـر بـه . (أطابت) كيف طابت ورضيت مع حبكم الشديد له . (تحثوا): تهيلوا وتدفعوا وتضعوا.

أخي الحبيب:

ألا كل مولود فللموت يولـد ولست أرى حياً عليها يخلـ ـد.

تجرد من الدنيا فإنك إنمـ ـ ـا خرجت من الدنيا وأنت مجـ ـرد.

أنت وإن خلوت مالا وكـث رة فإنك في الدنيا على ذاك أوحـد.

وأفضل شيء نلت منهـ ـ ـا فإنه متاع قليل يضمحل وينفـ ـد.

فكم من عزيز أعقب الـذل عزه فأصبح مذموماً وقد كان يحمد.

فلا تحمد الدنيا ولكن فذمهـا وما بال شيء ذمه الله يحمـ ـ ـد.

فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته ،

وصعوبة كأسه ومرارته،

فيا للموت من وعد ما أصدقه

ومن حاكم ما أعدله،

كفى بالموت مقرحاً للقلوب ،

ومبكياً للعيون ،

ومفرقاً للجماعات،

وهادماً للذات ،

وقاطعاً للأمنيات.

فهل فكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك ؟!.

وانتقالك من موضعك ؟!

وإذا نقلت من سعة إلى ضيق ،

وخانك الصاحب والرفيق ،

وهجرك الأخ والصديق.

وأخذت من فراشك وغطائك إلى عرر.

وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر.

فيا جامع المال،والمجتهد في البنيان،

ليس لك والله من مالك إلا الأكفان،

بل هي والله للخراب، وجسمك للتراب والمآل

فأين الذي جمعته من المال ؟!

هل أنقذك من الأهوال ؟!

كلا بل تركته إلى من لا يعذر.

وقدمت بأوزارك على من لا يحمدك .

عزيز فلم تترك لعزك .

غني فلم تترك لغناك .

فقير فلم تترك لفقرك

جواد فلم تترك لجودك

شديد فلم تترك لشدتك .

عالم فلم تترك لعلمك .

إخوة الإيمان: زورا القبور، وليقل الواحد منكم:

أتيـــت القبـــور فناديتـــها	**أيـــن المعظـــم والمحتقـــر**
وأيـــن المـــذل بـــسلطانه	**وأيـــن المزكّـــى إذا مـــا افتخـــر**
فالـــت تـــساووا جميعـــا	**فلا مخبر وماتوا جميعا ومات الخبر**
فيـــا ســـائلي عـــن أنـــاس	**مضوا أما لك فيما مـضى معتـبر**
تـــروح وتغـــدو بنـــات الثـــرى	**فتـــذهب محاســـن تلـــك الـــصور**

أخي الحبيب:

ما مضى من العمر وإن طالت أوقاته.

فقد ذهبت لذاته وبقيت تبعاته،

وكأنه لم يكن إذ جاءه الموت وميقاته ؛

قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء ٢٠٥-٢٠٧]

تلا بعض السلف هذه الآيات وبكى وقال: إذا جاء الموت لم يغن عن المرء ما كان فيه من اللذة والنعيم.

فيا أبناء العشرين:كم مات من أقرانكم وتخلفتم ؟!

ويا أبناء الثلاثين: أصبتم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتم .

ويا أبناء الأربعين: ذهب الصبا وأنتم على اللهو قد عكفتم .

ويا أبناء الخمسين: أنتم زرع قد دنا حصاده، تنصفتم المائة وما أنصفتم.

ويا أبناء الستين: هلموا إلى الحساب، أنتم على معترك المنايا قد أسلفتم.

أتلهون وتلعبون لقد أسرفتم ؟!

ويا أبناء السبعين: ماذا قدمتم وماذا أخرتم ؟

ويا أبناء الثمانين: لا عذر لكم.

قال مسروق: إذا أتتك الأربعون فخذ حذرك.

فيا أخي الحبيب:

تزود من الدنيا فإنك لا تـدري إذا جن ليل هـل تعـيش إلى الفجـر.
فكم من فتى يمـسي ويـصبح لا هياً وقد نسجت أكفانه وهو لا يـدري.
وكم من عروس زينوهـا لـزو جها وقد قبضت أرواحهم ليلة العـرس.
وكم من صغار يرتجى طول عـ ـ مرهم وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر.

وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر.

أخي الحبيب :

أزف الرحيل، وما حصل الزاد.

فيا لرحيلك ما أعجله!

ويا لسفرك ما أطوله!

ويا لطريقك ما أهوله!

تنبه أيها الشاب لاغتنام العمل!

تيقظ أيها الكهل قبل خيبة الأمل!

بادر أيها الشيخ فكأنه قد قيل ورحل!

يا من ستفوت أنفاسه استدركها!

يا من ستفوت أيامه أدركها.

أعز الأنفس عليك نفسك فلا تهلكها .

وصدق من قال :

ذنوبك يا مغرور تحصى وتحسب ... وتجمع في لوح حفيظ وتكتب

وقلبك في سهوٍ وغفلةٍ ... وأنت على الدنيا حريص معذب

تباهي بجمع المال من غير حله ... وتسعى حثيثاً في المعاصي وتذنب

أما تذكر الموت المفاجيك في غدٍ ... أما أنت من بعد السلامة تعطب

أما تذكر القبر الوحيش ولحده ... به الجسم من بعد العمارة يخرب

أما تذكر اليوم الطويل وهوله ... وميزان قسط للوفاء سينصب

تروح وتغدو في مرادك لاهياً ... وسوف بأشراك المنية تنشب

تعالج نزع الروح من كل مفصل ... فلا راحم ينجي ولا ثم مهرب

وغُمضت العينان بعد خروجها ... وبسطت الرجلان والرأس يعصب

وقاموا سراعاً في جهازك أحضر ... روا حنوطاً وأكفاناً وللماء قربوا

وغاسلك المحزون تبكي عيونه ... بدمع غزيرٍ واكفٍ يتصبب

وكل حبيب لُبه متحرك ... يحرك كفيه عليك وينـدب

وقد نشروا الأكفان من بعد طيها ... وقد بخروا منشورهن وطيبوا

وألقوك فيما بينهن وأدرجوا ... عليك مثاني طيهن وعصبوا

وفي حفرة ألقوك حيران مفردا ... تضمك بيداء من الأرض سبسب

إذا كان هذا حالنا بعد موتنا ... فكيف يطيب اليوم أكل ومشرب؟!
فيا نفس خافي الله وارجي ثوابه ... ف هادم لذات الفتى سوف يقرب
وقولي إلهي أولني منك رحمة ... وعفواً فإن الله للذنب يذهب
ولا تحرقن جسمي بنارك سيدي ... فجسمي ضعيف والرجا منك أقرب
فما لي إلا أنت يا خالق الورى ... عليك اتكالي أنت للخلق مهرب
وصل إلهي كلما ذر شارق ... على أحمد المختار ما لاح كوكب

وصدق القائل إذ يقول :

كل حي سيموت ... ليس في الدنيا ثبوت
حركات سوف تفنى ... ثم يتلوها خفوت
وكلام ليس يحلو ... بعده إلا السكوت
أيها السائر قل لي ... أين ذاك الجبروت
كنت مطبوع على ... النطق فما هذا الصموت
ليت شعري أهمود ... ما أراه أم فنوت
أين أملاك لهم في ... كل أفق ملكوت
زالت التيجان عنهم ... وخلت تلك التخوت
عمرت منهم قبور ... وخلت منهم بيوت
لم تزد عنهم نحوس ... الدهر إذ حانت بخوت
إنما الدنيا خيال ... باطل سوف يفوت
ليس للإنسان فيها ... غير تقوى الله قوت

****